

المحاضرة الأولى: الحالة العامة لأوروبا قبيل النهضة الأوروبية.

عاشت أوروبا خلال العصور الوسطى حالة من الجمود والتخلف النسبي مقارنة بالحضارات الأخرى، حيث تميزت أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية بعدم الاستقرار وضعف التطور. فقد أدى سقوط سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية إلى تفكك الوحدة السياسية وظهور كيانات إقطاعية متفرقة، مما أدخل القارة في مرحلة طويلة من الانقسام والصراعات.

وقد هيمن النظام الإقطاعي على الحياة العامة، حيث تركزت السلطة في يد النبلاء والإقطاعيين، بينما عاش أغلب السكان من الفلاحين في ظروف صعبة تتسم بالتبعية والفقر. اقتصاديًا، اعتمدت أوروبا على الزراعة التقليدية التي كانت ضعيفة الإنتاج، مع محدودية النشاط التجاري بسبب الحروب وانعدام الأمن.

أما من الناحية الفكرية والدينية، فقد سيطرت الكنيسة الكاثوليكية على مختلف مجالات الحياة، مما أدى إلى انتشار الفكر الديني المحافظ وتراجع الاهتمام بالعلوم والعقل، في حين سادت الأمية والجهل بين أغلب السكان. كما شهدت هذه الفترة انتشار أوبئة مدمرة مثل الطاعون الأسود، التي ساهمت في انخفاض عدد السكان وتدهور الأوضاع المعيشية.

وهكذا، فإن هذه الظروف مجتمعة جعلت أوروبا تعيش حالة من الركود، لكنها في الوقت نفسه شكّلت الأساس الذي انطلقت منه التحولات الكبرى التي ستقود لاحقًا إلى بروز عصر النهضة وبداية مرحلة جديدة من التقدم.

1 الحالة السياسية :

عرفت أوروبا قبل النهضة تفككًا سياسيًا كبيرًا نتيجة انهيار السلطة المركزية الرومانية، مما أدى إلى ظهور ممالك وإمارات صغيرة متناحرة. وقد كان النظام السائد هو النظام الإقطاعي، حيث قُسمت الأراضي إلى إقطاعات يسيطر عليها النبلاء مقابل تقديم الولاء والخدمة العسكرية للملك.

غير أن سلطة الملوك كانت غالبًا ضعيفة ومحدودة، إذ كانت القوة الحقيقية بيد الإقطاعيين الذين امتلكوا الجيوش المحلية. كما شهدت هذه الفترة كثرة الحروب والصراعات، سواء بين الإقطاعيين أنفسهم أو بين الممالك الأوروبية، مما أدى إلى انعدام الاستقرار السياسي وانتشار الفوضى.

2. الحالة الاقتصادية:

اتسم الاقتصاد الأوروبي قبل النهضة بطابع زراعي تقليدي يعتمد على وسائل إنتاج بدائية، مثل المحراث الخشبي، مما أدى إلى ضعف الإنتاجية. وكان النظام الاقتصادي قائمًا على الاكتفاء الذاتي داخل الإقطاعيات، حيث ينتج السكان ما يحتاجونه دون انفتاح كبير على الأسواق.

كما عانت التجارة من ركود واضح بسبب غياب الأمن وكثرة الحروب، إضافة إلى سوء الطرق والمواصلات. ونتيجة لذلك، كانت النقود نادرة، واعتمد الناس في كثير من الأحيان على المقايضة. ولم تبدأ التجارة في الانتعاش إلا في أواخر هذه المرحلة مع بروز بعض المدن.

3. الحالة الاجتماعية:

تميّز المجتمع الأوروبي بطابع طبقي صارم، حيث انقسم إلى ثلاث طبقات رئيسية:

- النبلاء: وهم مالكو الأراضي ويتمتعون بالسلطة والنفوذ .
- رجال الدين: يتمتعون بمكانة عالية نظرًا لدورهم الديني والتعليمي .
- الفلاحون: يمثلون الأغلبية، وكانوا يعيشون في ظروف قاسية .

كان الفلاحون غالبًا مرتبطين بالأرض (نظام القنانة)، حيث يعملون لصالح الإقطاعي مقابل الحماية، مع غياب شبه تام للحريات . كما كان الحراك الاجتماعي محدودًا جدًا، إذ يصعب على الفرد الانتقال من طبقة إلى أخرى.

4. الحالة الدينية :

هيمنت الكنيسة الكاثوليكية بشكل شبه مطلق على الحياة الأوروبية، حيث لم يكن دورها مقتصرًا على الجانب الديني فقط، بل امتد إلى السياسة والتعليم والقضاء.

فقد كانت الكنيسة تتحكم في الفكر العام، وتفرض رؤيتها على المجتمع، كما حاربت الأفكار المخالفة من خلال وسائل مختلفة، منها محاكم التفتيش. وقد أدى هذا النفوذ إلى تقييد حرية التفكير وإبطاء التقدم العلمي، حيث كانت التفسيرات الدينية تهيمن على فهم الظواهر الطبيعية.

5 الحالة الفكرية والعلمية:

شهدت أوروبا في هذه الفترة ركودًا فكريًا وعلميًا مقارنة بما عرفت الحضارات السابقة، خاصة اليونانية والرومانية، وكذلك الحضارة الإسلامية في نفس الفترة. فقد اقتصر التعليم على رجال الدين، وكان موجّهًا أساسًا لخدمة اللاهوت.

انتشرت الأمية بشكل واسع بين عامة الناس، وغابت روح البحث العلمي والتجريب. ومع ذلك، بدأت في أواخر العصور الوسطى تظهر بعض البوادر، مثل إنشاء الجامعات الأولى، وترجمة بعض الكتب، مما مهّد تدريجيًا لظهور فكر جديد.

6. الحالة الصحية:

عانت أوروبا من أوضاع صحية متدهورة نتيجة ضعف الطب وانعدام النظافة وانتشار المجاعات. وقد تفاقمَت هذه الأوضاع مع ظهور أوبئة خطيرة مثل الطاعون الأسود، الذي أدى إلى وفاة ملايين السكان. نتيجة لذلك، ارتفعت معدلات الوفيات بشكل كبير، وانخفض متوسط العمر، وتراجع عدد السكان في بعض الفترات. كما أثر هذا الوضع على الاقتصاد والمجتمع، حيث أدى نقص اليد العاملة إلى تغييرات لاحقة في العلاقات الاجتماعية.

7. الحالة الأمنية والعسكرية :

تميّزت هذه المرحلة بانعدام الأمن في العديد من المناطق، خاصة خارج المدن، بسبب انتشار الحروب والنزاعات بين الإقطاعيين. وكانت الطرق غير آمنة، مما أثر سلبًا على التجارة والتنقل.

أما عسكريًا، فقد اعتمدت الجيوش على الفرسان والنبلاء، وكان القتال يعتمد على أساليب تقليدية، مع غياب التنظيم المركزي القوي.